(١٥)

المطلوب: تصرف حضارى!*

المفروض مثل هذا المقال موجه فى المقام الأول إلى رجال الدولة المسئولين عن التربية والتعليم فى المدارس والجامعات، ولكن تجاربى دلت على أن رجال الدولة لا يقرءون ما يكتبه الكتاب، أو لا يأخذونه مأخذ الجد، لأن موظفى الدولة عندنا يعتقدون أنهم هم وحدهم الذين يفهمون. ونحن فى مصر تعودنا من أيام الفراعنة أن نعطى رجال الدولة أهمية كبرى. قد يكون العمدة فى القرية رجلا ضعيفا جدا أو فاسدا جدا. ولكنه يظل شخصية محترمة وقوية وقادرة على العمل.

وقد حدث ذات مرة فى بلدنا أن خفيرا أخذ رشوة وضبط بها، وطلبنا إلى العمدة أن يعاقبه، فرفض، وعبثا حاولنا عقاب هذا الخفير، وأخيرا قال العمدة كأنه يسخر بنا جميعا: إنه لم يأخذ هذه المائة جنيه رشوة، بل أخذها سلفا لعلاج امرأته، وكل ما لكم عنده أن يعيد المائة جنيه إلى أصحابها، ثم استدعى صاحب الفلوس، وقال له أمام الناس:

– أليس حراما أن تقول إن عم عبد الخالق أخذ منك رشوة بالعافية؟ ألم تكن امرأته مريضة ويريد علاجها؟ ألم تعطه أنت المائة جنيه سلفا وطواعية لأنك رجل طيب كريم!.

والرجل نظر إلى من حوله، فقالوا له:

– قل أيوه لكى تسترد فلوسك وإلا ضاعتْ وماذا ستكسب من إثبت الرشوة على هذا الرجل.

وقال الرجل: هات يا عمدة الفلوس وخلينا نخلص.

– وتقرر أمام الناس أنها كانت سلفة اختيارية منك؟

– أقرر ذلك.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٥ أكتوبر ١٩٨٦م.

– إذن فها هى ذى فلوسك وتتصالح مع الشيخ عبد الخالق وتسقط عنه التهمة والدعوة.

وأخذ الرجل الفلوس. وانتهت القضية، وظل المرتشى خفيرا محترما كما كان، لأن حضرة العمدة أراد ذلك.

لهذا، وثقة منى فى قلة الجدوى مع المسئولين، فإننى أوجه كلامى هنا إلى المواطنين، وأنا أعتقد على أى حال أن أحوالنا لن تنصلح إلا إذا أخذ الشعب مسئوليته عن معظم أموره بيده، ةتولاها بنفسه، وقام بتعليم رجال الدولة كيف تساس الأمور، وكيف تعالج المشاكل. ولن يكون هذا غريبا. بل هذا هو الطبيعى الجارى فى بلاد العالم المتقدمة.

□□□

أقول إن العلم – وكل الأعمال القائمة على العالم – دخلت من عشرين سنة أو ثلاثين فى عصر جديد جدا من سعة الأفق والدقة والشمول، أصبح من المستحيل فيه أن نتقدم إلا إذا دخلناه وعرفناه وعشناه، فتسعون فى المائة من شركاتنا تخسر، لأنها تشترى آلات لا تعرف كيف تستعملها، وتستخدم عمالا لا يعرفون كيف يستعلمون هذه الآلات، وليست لديهم فكرة واضحة عن معنى الإنتاج المطلوب فى أيامنا هذه، فأسواق الدنيا مغمورة بالمنتجات الجيدة، فإذا أنت احتجت إلى آلة كاتبة فأمامك منها عشرات الأصناف، من الماكينة العادية إلى الإلكترونية، وكلها تؤدى عملا ممتازا، وقد اشتريت من عام ماكينة كاتبة كهربائية، تدربت عليها ساعة من زمان، ثم أصبحت الكتابة عليها متعة، ولكنها تحتاج ممن يستعلمها إلى أن يكون على مستواها، معرفة بطريقة استعمالها والمحافظة عليها، وهى تضبط لى كل شىء: المسافات والهوامش ونهايات السطور، ولو أن هذه الماكينة عندى من عشرين سنة مثلا لأراحتنى من عناء عظيم. وفى الأسبوع الماضى تلقيت نشرة دعاية من شركة يابانية تصنع كل شىء من السيارة والجرار وقاطع الحشائش إلى الآلات الكاتبة. وعندهم كذلك آلة كاتبة عربية ذات شاشة، فتكتب وتقرأ ما تكتب وتصححه. وفى أول

مشوار لى إلى الخارج سأشتريها، لأننى تعبت من كتبة الماكينة المصريين الذين أهلكونى طول عمرى بالأخطاء وسوء الكتابة ونهب الفلوس. وضحكت فى نفسى عندما ذكرت أننى قرأت من سنتين إعلانا نشرته إحدى الشركات التابعة لوزارة الصناعة تقول إنها ستنتج آلات كاتبة. وأن إنتاجها فى العالم سيقدر بكذا مليونا من الدولارات عند تصديره، لأن اليد المصرية العاملة – هكذا قالوا – لا نظير لها فى الدنيا. ضحكت، لأننى أعرف أولا أن هذه الشركات مادامت تابعة لوزارة الصناعة فهى لن تنتج آلات كاتبة ولا محاريث. وثانيا لأن اليد المصرية العاملة لم تعد ممتازة أبدا، وثالثا لأننا لا نعرف كيف نصدر أو نسوق أو نبيع، ورابعا لأن الصناعة فى عصرنا علم. والعلم صنف لا نعرف كيف ننتجه، وهنا لا معنى لأى كلام.

ومن خمس سنوات طفرت شركة آل أجنيلى صاحبة مصانع فيات للسيارات فى تورين، طفرة بهرت الدنيا، فأنتجت أدوات الكترونية وأجهزة كمبيوتر تفوقت على المنتجات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية، قفزت مبيعاتها ثلاثة أضعاف فى سنتين، واتسع مجال مبيعات ورءوس أموالها، فاشترت شركات أغذية فرنسية، واشترت مصانع بويتونى للمكرونة، وأسرع مصرى ليشترى التوكيل ليصنعها فى مصر، وعمل إعلانات، ولكنه لم يعمل شيئا، لأن إجراءاتنا الحكومية أوقفته عند حده. وأراد أن يرسل خمسة عمال مصريين إلى إيطاليا للتدريب، فاشترطت وزارة القوى العاملة أن يوقع معهم عقودا تجعل من المستحيل عليه أن يستخرج منهم أى إنتاج، لأن جميع المسئولين فى القطاعات التى اتصل بها فى الوزارات لم يتحمسوا له، ولا هم فهموه. وكل همهم الاستمارة الزرقاء والشهادة البمبى وإذن التصنيع وأذون الاستيراد وكلام فارغ لا يسودى ولا يجيب، وصدق أو لا تصدق: أن هذا المصرى بدلا من أن ينشىء المصنع فى مصر أنشأه فى سنجابور، فقد كان فى إيطاليا وفلوسه فى جيبه ورجال سنجابور – أو سنغافورة – قالوا له: هات أدواتك وفلوسك وتعال اعمل

عندنا، نحن نساعدك فى رأس المال بأرباح ٣ فى المائة من تاريخ بداية الإنتاج. وهو اليوم يا أخى هناك يصدر إنتاجه لأربعة بلاد عربية، ويربح أرباحا طائلة.

□□□

والذى صنعته شركة يابانية خلال الثلاثين سنة الماضية لا يصدق. ومن أسف أننى لا أستطيع ذكر اسم الشركة وتفصيل ما عملت، خوفا من أن تحسب إعلانات، ولكن الشركة التى بدأت من ثلاثين سنة، فى آخر صف شركات السيارات اليابانية، وقفت زمنا طويلا وراء الشركات الأولى بأميال، ثم ابتكرت موتوسكيلا عظيما، ضرب الأسواق من عشر سنوات، وأنشأت فرعا للإنتاج فى الولايات المتحدة بلغ إنتاجه وبيعه فيها ثلاثة ملايين موتوسيكل وسكوتر فى العام، وسيارات الشركة كانت صغيرة وضئيلة، وأنا اشتريت من سياراتها واحدة صغيرة أيام كنت أعمل فى الكويت، فدفعت فيها مائتين وخمسين دينارا، وكانت تحملنى إلى الجامعة فى غاية الكفاءة، ولكنها كانت هزيلة، ثم حدث بعد ذلك أن تولى الشركة مدير من أساتذة التصنيع والإلكترونيات، فطور سيارات الشركة تطويرا لا يصدق، وكانت نقطة البداية عنده إنشاء معهد تعليم وتدريب علم فيه عماله وعاملاته تدريبا عظيما، والرجل لا يعرف عاملا ينفع وعاملا لا ينفع، ومادام العامل نشيطا فهو عنده صالح للعمل، ولكن الخلاف فى مستوى العمل ونوعه، فهناك عامل ذكى ماهر يصل إلى صناعة الروبوت أو الإنسان الآلى الذى يقف فى موقف معين من خط الإنتاج ويقوم بعملية محددة، وهناك عامل يقف تطور ذهنه عند التغليف وإعداد الصناديق، وكلهم يعملون وينتجون، واختار الرجل من عماله مجموعة من المصممين أصحاب الفكر المتألق، عملوا معا فى تركيب سيارة عجيبة اشتركوا فيها مع مهندسى شركة روفر الإنجليزية وأخرجوا سيارة تسمى هوندا روفر، تضم كل شىء فى أصغر مساحة ممكنة، والسيارة بهرت الأمريكيين، فدخلت فيها الجنرال موتورز شريكة، وأخرجوا سيارة هى تحفة تسمى الاكورا والأمريكيون اليوم يطلبون السيارة الثانية، فإلى جانب سيارة الأسرة

الأمريكية التقليدية لابد أن تكون هناك سيارة صغيرة جانبية مثل هذه الاكورا. وأنا ركبت الاكورا هذه لمجرد التعرف عليها، فأدهشنى ما وجدت فيها: فى مساحة صغيرة - ثلاثة أرباع التابلوه أمامك - وضعوا لك نحو عشرة أجهزة قياس وبيان، كلها تعمل بصورة هى الغاية فى البساطة، ومن مكانك أمام عجلة القيادة تستطيع أن ترى كل شىء فى سيارتك: داخلها وخارجها، والمحرك فى يدك باور - ستيرينج يحرك السيارة كأنها ريشة، وأنت إذا خرجت منها أقفلتها بعجلات صغيرة مثل تلك التى تثبت بها أقفال حقيبة يدك. وألوان هذه السيارات عجب، وميكانيكيتها مستوردة من القرن الحادى والعشرين، وظلها خفيف، وسعرها أخف- على الأمريكى - من ظلها.

وأعجب العجب هم أولئك الذين يصنعون هذه السيارة، فهم مهندسون لا يمكن أبدا أن يتخرجوا فى كلية هندسة فى بلادنا، إن تصميماتهم تحير العقل. كل شىء يحسبونه بالكومبيوتر، حتى يستطيعوا أن يصوغوا سيارة تفرض نفسها على الناس فرضا، ويعمل معهم عمال وعاملات فيما بين الخامسة عشرة والعشرين،أنهم يدخلون المصانع بعد الإعدادية، ويتدربون تدريبا عسكريا فعلا، إنهم يفهمونهم كل شىء، ويعلمونهم كيف يصنعون الروبوت - وهو الإنسان الآلى - ثم كيف يوجهونه فى العمل، إن أصابعهم الصغيرة لا تمس شئا لأنهم يعملون بملاقط وكماشات ممغنطة تمسك سلكا كأنه الشعرة وتنفذه فى خرم إبرة، لقد وصفهم صحفى أمريكى وقال أنه لم ير فى حياته شيئا مثل ذلك: فى كل عنبر عمل حوالى مائتى بنت جالسات أمام خط التجميع، والشريط يمر أمامهن فى بطء، وهن يثبتن القطع، وفى آخر كل صف من عشرة تقوم اثنتان تراجعان عمل الباقيات، وكل شىء يخرج بحسب المطلوب، ولا شاى ولا قهوة ولا حتى مجرد كلام، ولكن كل الوجوه تبتسم، والنجاح يضحك فى وجوه الجميع، والكوماندة - أو الرقيب - ينظر من أعلى بشىء أشبه بالتلسكوب الصغير، ولا يفوته شىء، وإذا كان من المقرر أن تخرج هذه القاعة مائتى قطعة جاهزة فى الصباح. فتأكد أن ذلك يتم قبل أن يدق جرس راحة الغداء،

هنا – وبدون ضجيج – ينتقل الفتيان والفتيات إلى كافتيريات ترد الروح. هنا يأكلون ويتحدثون ويضحكون، ولا أحد يطلب إجازة عارضة، ولا عامل يكذب ويزعم أنه لابد أن يخرج ليأخذ أمه للطبيب، لأن أمه مؤمن عليها طبيا تأمينا حقيقيا لا لعب عيال، وكما أن عنبر العمل فل فكذلك الكافتيريا، وكل شيء يسير في هذا المصنع كأنه كواكب ونجوم تسير بانتظام حركة الكون.

لا غرابة في أن هذه الشركة تقترب بسرعة من مكان الصدارة بين شركات السيارات العالمية، لها الآن ٥٢ ورشة تجميع في اثنتين وثلاثين دولة، الولايات المتحدة وحدها فيها اثنا عشر مصنع تجميع، والشركة باعت في العام الماضي ما قيمته تسعة بلايين، و٧٧ في المائة من الدولارات، وحققت أرباحا قدرها ٤٠٣ من ملايين الدولارات.

ما الذي يجعل هذه الشركة تنجح بهذه الصورة وتعمل بهذا التنظيم؟

أولا: هناك العلم، ذلك طبيعي، هذه شعوب لا تحتقر العلم.

ثانيا: هناك العمل بناء على العلم، والعمل هناك لا يمكن أن يكون إلا متقنا إلى درجة لا يمكن إبداء ملاحظة عليها.

وثالثا: هناك رأس المال الذي يمكن الناس من النهوض بهذه الأعمال. فالناس هناك عندهم فلوس. وهم يعيشون حياة سعيدة جدا، ولكن لا إسراف فيها ولا بعزقة ولا سوء تصرف. إنهم يحصلون على كل ما هو ضروري ولازم ولا زيادة، وهم يحافظون على ما عندهم، والأموال هناك تتراكم ولكنها لا تنهب، واللصوص موجودون وكذلك الفاسدون، فهذه شرور داخلة في تكوين البشر، ولكن هناك القانون أيضا، وهو هناك صارم، هنا يحكم الشعب كل مناحي الحياة، ولكن الحكومة تنفذ القانون والإهمال والتساهل والتراخي جرائم، والمحاكم تعمل في انتظام المصانع وسرعتها.

ورأس المال يستخدم بعقل وحكمة، وحكاية رئيس مجلس الإدارة الذي يتقاضى عشرة آلاف جنيه في الشهر لمجرد أن الدولة اختارته من

الحزب - فى الغالب - غير موجودة هناك، وعندما يأخذ رئيس مجلس الإدارة خمسة آلاف دولار فى الشهر، فإن العامل أو العاملة العادية يأخذ وتأخذ ثلاثة آلاف دولار فى الشهر والعامل لا يشترى سيارة إلا إذا كان يحتاج إليها حقا، لأن المواصلات هناك ممتازة والأسعار غالية، ولكن الدولة هناك لا تستدين لتطعم تنابلة السلطان، وزارات التموين لا توجد فى البلاد المحترمة إلا أثناء الحروب، وبعد الحروب تلغى، والهيصة التى تعملها وزارة التموين عندنا هيصة مصطنعة، ولا معنى لها، ولو أننا ضبطنا القانون وأحكمنا تنفيذه وراقبنا الجمارك مراقبة فعالة لاستطعنا أن نلغى وزارة التموين، وعندما سنخرج - قل يا رب - من ذلك العالم الثالث الغلبان فسنلغيها، وسيكون حالنا أحسن بكثير.

□□□

ولكن قل لى..

ما سبب هذا الفرق الهائل بيننا وبينهم؟ لماذا هم يحلقون فى السماء. بينما نحن نغوص تحت؟ السبب يا سيدى هو سقوط الهمم وانعدام الطموح.

فإننا منذ أن قرر الرئيس عبد الناصر أن يأكل كل أهل هذا البلد من يديه، بدأنا نتحول إلى شعب بلا طموح، وكل هذه التصرفات التى تراها لا تصدر إلا عن ناس ضعفت همتهم، وتحولوا إلى دواجن.

وإلى بضع سنوات قليلة مضت كنت لا أزال ألقى محاضرات فى قاعات الجامعة، وكنت فى الحقيقة لا أدرس بل أقوم طول الوقت بعمل رجل بوليس، فأنا أحفظ النظام فى الفصل، وبينما أحاول إسكات المتكلمين وإجلاس الواقفين وأرجو الداخلين أن يغلقوا الباب، كنت أبحث فى صمت عن الشاب الطموح فلا أجده، وأمامى ما بين ثلاثمائة وأربعمائة شاب وشابة، لا يحسن واحد منهم عربية أو إنجليزية أو أى لغة أخرى، كل ما يريدونه منى مذكرة مختصرة فى نحو سبعين صفحة، يستذكرونها وتجىء فيها الأسئلة وينجحون فى الامتحان، وعندما يحصلون على

الليسانس تبدأ معركة حياة تعيسة، لأن هؤلاء جميعا يستوظفون براتب فى حدود خمسين جنيها، لا تكفى لأى حياة ربع محترمة، وكلهم يريدون أن يتزوجوا ويحصلوا على شقق، لكى يبدأوا عملية صنع مصريين جدد، وهذا هو العمل الأساسى للمصريين اليوم.

وكلهم ينتهون بالعثور على مسكن والزواج، ولكن المعركة التى يخوضونها للوصول إلى ذلك تستنفد الجهد كله خاصة أن الحصيلة العلمية التى يعتمدون عليها لا تذكر، ولهذا فهم يتحولون تلقائيا إلى كسالى وعاطلين جالسين إلى مكاتب، وليس فى الدنيا أشد كآبة من غرفة فى مصلحة مصرية، يجلس فيها موظفون وموظفات كأنهم قلل فى صينية، وليس هناك أصعب من استخراج عمل منهم، إنك تترفق وتستعمل أحسن ما وهبك الله من الذوق والأدب واللباقة لكى تحصل من أحدهم على شىء، وإذا كنت سعيدا أوقعك الله فى مكتب رئيسه رجل فى الخمسينات، أقصد رجلا لم تمسه نكبة العصر الناصرى ومحنة الأكل من يد الزعيم، هنا قد تحظى بشىء من بقايا عزة زمان، والشعور بالواجب الباقى من أيام زمان.

هبوط الهمم هذا هو البلوى الكبرى، فاهتمامات الناس صغيرة، وطموحاتهم منعدمة، وخاصة بعد إنجاب الأولاد واتجاه الجهد إليهم، ومن مثل هؤلاء كيف تتصور أن يظهر شباب يمكن أن يصنعوا سيارة مثلا؟ لقد حدثتك عن طموح الآخرين وتفاؤلهم وتطلعهم وإيمانهم بأنفسهم وبوطنهم، هنا لا إيمان بالنفس ولا ثقة فى الجار ولا أحلام عن مستقبل الوطن، هنا يبيع المصرى الذى يقولون إنه خلاصة سبعة آلاف سنة حضارة يبيع الأرض الزراعية أو يجرفها أو يعمل أى مصيبة يمكن أن تأتيه بشىء، هنا لا يعرف الناس كيف يركبون الحافلة، كل الذين فى الداخل يريدون أن يخرجوا من نفس الباب الذى يحاول الدخول منه كل من فى الخارج فى نفس الوقت أيضا، بشىء يدعو إلى العجب، والله لو أننا

كنا قردة لما تصرفنا على هذا النحو، وإذا كنا نعاني من ركوب الحافلة فلماذا لا نركب بالعقل والنظام كما يفعل بقية البشر؟

□□□

وهذه هي النقطة الأساسية الثالثة التي أريد أن أحدثك فيها في هذا المقال: التصرف الحضاري. فنحن مع الأسف الشديد لان نعرف شيئا عن التصرف الحضاري، لقد استمعت لحديث من الأحاديث العلمية الجميلة التي يلقيها أخي الدكتور مصطفى محمود في التلفاز، وكان حديثه عن البلهارسيا، ورأينا معه تلك الآفة وهي تنفذ كما علمها الله من جلد المريض إلى باطنه لتعيش فيه، وكل ما قاله مصطفى محمود أن المطلوب منا عمله لإيقاف هذه الآفة من أن تعربد بحياتنا، هو أن نقطع دورة حياتها، وقال إن كل المطلوب هو أن نتصرف تصرفا حضاريا، وقد يسر الله علينا ذلك لكي ننجو من شرها إذا كنا نريد أن ننجو، فإن البلهارسيا - وهذا كلام تقوله الدولة وتذيعه من ستين سنة - تولد في الماء، وتتربى بعد ذلك في قوقعة، ثم تخرج لتبحث عن جسد إنسان تنفذ فيه لكي تستكمل دورة حياتها في جسده وتهلكه، وكل المطلوب منا لكي نتخلص منها أن نتصرف تصرفا حضاريا، فلا نتبول أو نقضي حاجتنا في ماء النيل أو ماء الترع، فلا تخرج اليرقات إلى الماء، وتنقطع دورة الحياة، وتنتهي حكاية البلهارسيا، في بلاد الصين لجأوا إلى القضاء على القواقع، وكل قرية كلفت بأن تقضي على القواقع في زمامها، وتكونت لجان شعبية قروية قامت بتلك المهمة، ونحن غير المتحضرين لا نفعل ذلك، إننا نكون اللجان الشعبية القروية لكي نحتفل بالعيد القومي للمحافظة ونستمع إلى خطب المسئولين.

وكلنا نعرف أن حكاية الأعياد القومية للمحافظات بدعة لا تضر ولا تنفع، إلا فيما يتعلق بمنطقة القناة، ولكنها مناسبة للمسئولين ورجال الحزب لكي يجمعوا الناس ويشنفوا آذانهم بكلمتين عن الوطن والوطنية، ويذيع التليفزيون ذلك الخبر، ويتألق هذا أو ذاك من المسئولين، ولكن

القضاء على قواقع البلهارسيا عمل حضارى جاد، ولهذا فنحن لا نفعله، ولن نزال إلى أبد الآبدين نتحدث عن سبعة آلاف سنة حضارة، دون أن تظهر علينا «شبهة» حضارة.

ومن المعانى الجليلة للحضارة العمل المشترك لما فيه خير الجماعة، فنظافة قريتنا أو شارعنا أو بيتنا عمل حضارى إذا قمنا به جماعة، والدولة مهما فعلت فهى لا تملك أن تعمل ربع المطلوب، وحتى لو أرادت فهى تعمل بنا، ونحن كما رأيت غير متحضرين، لقد عشت فى قرى متحضرة فى سويسرا وفرنسا، ورأيت ماذا يفعل الناس. هناك يشترك أهل كل شارع من شوارع القرية فى النظافة وإنشاء الأرصفة والمواقف وما إلى ذلك، وكل مواطن يدفع لصندوق القرية مبلغا يقرره المجلس البلدى المحلى، والعمدة - الذى هو عمدة حقيقى هناك - يشرف على تلك الأعمال مع مجلس القرية. ومن غير المعقول أن تكون هناك بركة يتربى فيها الباعوض أو قنطرة مكسورة على ترعة أو سور بيت متهدم، فيذهب الناس إلى المحافظة لعلاج أمثال هذه الأشياء هذه يصلحونها هم باستمرار، لأن الناس هناك متعاونون متفاهمون على كل ما ينفع قريتهم، وقد قضيت الصيف ذات مرة فى قرية سويسرية قرب برن، فوجدت أن قريتنا وثلاث قرى مجاورة تملك سيارة نصف أتوبيس تخدم القرى الأربع حسب نظام موضوع. وهذه السيارة تحمل أهل قريتنا إلى برن وتعود لتحمل من يريد الذهاب إليها من القرية الثانية فالثالثة فالرابعة، ثم ينصرف السائق لقضاء ما يطلب منه من حوائج، ثم يعود فيأخذ الناس ويعيدهم إلى قراهم جماعة جماعة، والسيارة ملك القرى الأربع، ولكن السائق رجل عجوز يعمل بالأجر، وهو رجل لطيف، تعلمت منه الكثير، لأنه كان رجلا متحضرا، والحضارة كانت عنده القيام بالواجب وحب الناس والقيام بحوائجهم، وما رأيته مرة إلا ذكرت عم فرج - الأبونيه - الذى كان يشترى لأهل قريتنا حاجاتهم من المنصورة أو القاهرة ولا أذكر أنه أدى خدمة لإنسان

إلا سرقه وقد اشتهر أمره بقلة الذمة حتى قال فيه العمدة: إنه لا يستريح إلا إذا سرق، ولو أنك كلفته بأن يشترى لك ليمونة فإن قلبه لن يستريح إلا إذا ثقبها بإبرة ومص منها شيئا.

□□□

ذلك هو بيت القصيد من مقالى هذا: التصرف الحضارى، فإن الحضارة علم وعمل وتعاون وفهم، ونحن لن نتحرك خطوة إلى الأمام إلا إذا كانت لدينا هذه الأربعة والعلم ليس شهادة بل معرفة وثيقة ومؤكدة، والبنات اللائى يعملن فى الشركة التى حدثتك عنها لا يحمل شهادات، ولكنهن يحملن مهارات، وأصابع الواحدة منهن ثروة قومية، بينما مئات الشهادات عندنا خسائر قومية، لأنها لا تساوى قيمة الورق الذى طبعت عليه، والواحدة منهن إذا جلست للعمل انصرفت إليه بقلبها وعقلها وإحساسها جميعا، لأنها تريد أن تعمل أحسن ما يستطيع البشر، وأقل من هذا لا يرضيها، لأنها متحضرة، وهى تتعاون مع زميلاتها خطوة خطوة، لأن الحضارة تعاون، والإنسان المفرد لا يمثل حضارة ولا ينهض بحضارة، ومصيبة تاريخنا إننا لا نعرف التعاون، والتعاون عندنا انتهى أمره من يوم شملته الحكومة ببركاتها وجعلته وكالة وزارة، مع أن التعاون ينبغى أن يتعلمه الانسان فى البيت، الأدب والأم يعلمان الأولاد معنى التعاون وكيف يكون، ولو أن الناس عندنا لديهم أدنى إدراك لمعنى العمل المشترك كما كان الأتوبيس عندنا على تلك الصورة المزرية، سألنى سائل: ماذا يخسر أولئك الناس لو وقفوا طابورا وتركوا الخارج يخرج ثم دخلوا بالدور بنظام وقيمة؟ قلت: هؤلاء يا أخى ناس غير متحضرين، إنهم همج، وإخواننا هؤلاء هم أبناء عمومة الأخرين الذين يربون البلهارسيا فى أجسادهم، وهم إخوة العمال الذين أنتجوا ما يقدر بستة بلايين من الجنيهات بضائع لا يشتريها أحد، لأنها لا تصلح للاستعمال، والذين

أنتجوها يعملون دائما دون تركيز ودون التفات ودون أكتراث. إنهم غير متحضرين، إنهم همج.. صدقني.. همج!.

والهمجية تتأتى عن الفردية، قبل أن تنشأ الحضارة كان الإنسان يهيم على وجهه فى الغابات، وعندما أنشأ الإنسان أسرة وتحولت الأسرة إلى قبيلة، ظل الإنسان يعيش فى قبيلته فردا ضائعا، ورئيس القبيلة نفسه كان رغم قوته ضائعا: يقتله أى رجل قوى من رجال القبيلة، ويأخذ الرئاسة لنفسه وفى الرئاسة يعمل بالآخرين ما يريد.

أليس هذا هو حال الفرد فى الأمم المتأخرة اليوم؟

وعندما تتفكر فى أمر نفسك أفلا تحس فى بلدك السعيد هذا أنك فرد هائم على وجهك، وأنك فى الحقيقة تعيش بلا حقوق، ولو أن أحدا اعتدى عليك فأنت تلجأ إلى القضاء، والقضاء سينصفك بعد عمر طويل جدا؟

من مثل هذا المستوى البدائى الذى نعيش فيه لا يمكن أن نصل إلى متسوى العلم والإنتاج الذى حدثتك عنه. لأن هذا كله ثمرة العمل الجماعى، وأنا عشت فى أوساط العلم فى أوروبا وأمريكا، وأعرف كيف يتعاملون، لا أحد يعمل منفردا أبدا، وكما أن السيارة التى حدثتك عنها هى ثمرة عمل ألف يد وألف عين، فكذلك كل قطعة فيها، فإن العلم لا يزرع ولا يوجد على الأرض ولا يستخرج من البحار كاللؤلؤ، إنما هو ثمرة العمل الجماعى. وقد وصل العلم فى عصرنا إلى مستويات أشك معها فى أننا سنستطيع اللحاق بهم فيها، إلا إذا تغير كل شىء فينا، فنحن بدائيون أنانيون، ونحن مازلنا نهيم على وجوهنا ضائعين فى مجتمعنا هذا الذى هو فى الحقيقة غابة.

ثم يقول لك الجامعيون: لقد أعددنا مكانا لكل حاصل على الثانوية العامة، وماذا سيعمل الطالب فى هذا المكان؟ لا شىء. إن استاذه نفسه

بعيد جدا عن فكرة العلم فى عصرنا، والمسألة كلها خطف، الطالب يخطف، والأستاذ يخطف، وقرود الغابة مطلقة على وجوهها..

□□□

بدأت هذا الكلام بأننى لا أخاطب رجال الدولة.

وأختتمه بتأكيد هذه الفكرة، فأنا الآن أخاطب الناس، وأطلب إليهم أن يعملوا معا لينشئوا حضارة مصرية جديدة، حضارة تعاون على كل شىء وفى كل شىء، وأبسط قواعد هذه الحضارة تقول لك: دع جانبا قوالب هذا المجتمع الزائفة، ليس من الضرورى أن يكون ابنك حامل شهادة جامعية، بل المهم أن يعيش سعيدا، المهم أن يعيش كما يعش العامل الصغير الذى يشترك فى بناء السيارة العجيبة، ويأخذ راتبا قدره ثلاثة آلاف دولار فى الشهر، ورئيس الإدارة يأخذ خمسة، لأن الاثنين - العامل ورئيس مجلس الإدارة - ترسان فى آلة واحدة، وكلهم يتعاونون بنظام وإنسانية ليصلوا إلى السعادة..